المجمع 17 (2022/1443)، 315-345

ظواهر مشتركة بين الأدبين العربيّ والتركيّ في النصف الأول من العهد العثمانيّ

مشهور الحبّازي[1]

Commonalities between Arabic and Turkish Literature in the First Half of the Ottoman Era

Mashour al-Habazi

Abstract:

This study tackles four shared commonalities between Arabic and Turkish literature in the first half of the Ottoman period, specifically the tenth and eleventh Hijri centuries. These shared commonalities are the languages used to write literature, the characteristics of both Arabic and Turkish literature, travel literature, and educational institutions. To show this, the study adopts historical and descriptive research methodologies, concluding that the commonalities between Arabic and Turkish literature are far more apparent than their differences. Therefore, the study recommends further research into these commonalities as means to rewrite Islamic history and enlighten the young generations about the brotherly relations between Islamic societies during the Ottoman period.

الملخّص:

تناولت في هذا البحث أربع ظواهر مشــتركة في الأدبين العربيّ والتركيّ، في النصــف الأول من العهد العثمانيّ، تحديدًا في القرنين العاشـر والحادي عشـر الهجريين، وأمّا هذه الظواهر فهي: اللّغات الّتي يُكتب بها الأدب، وسمات الأدبين العربيّ والتركيّ، وأدب الرّحلات، وبيوت العلم.

وقد اعتمدتُ في هذا البحث المنهجين الوصــفيّ والتاريخيّ، وخلصــت فيه إلى أن القواســم المشــتركة بين الأدبين العربيّ والتركيّ أكثر بكثير من نقاط الاختلاف والتنافر. وقد أوصـيت بضـرورة بحث تلك القواسـم المشـتركة ودراسـتها بشـكل موسّـع، وإعادة النظر في التاريخ الإسـلامي في هذه الحقبة من أجل تعريف الناشئة بحقيقة العلاقة الأخوية الرائدة الّتي كانت تسـود شـعوب الخلافة الإسلاميّة العثمانيّة.

[1] جامعة القدس- رام الله- فلسطين.

ظواهر مشتركة بين الأدبين العربيّ والتركيّ في النصف الأول من العهد العثمانيّ

تقديم

للأدب دور مهم في حياة الشعوب، فهو قادر على التأليف أو التفريق بينها؛ لذلك تحرص الشعوب، الّتي تنتمي إلى عقيدة واحدة، ولها تاريخ مشترك، على نشر هذا النتاج الأدبي المؤلّف للقلوب، والجامع للعواطف، والمنمّي للمشاعر الّتي تخدم وحدتها، وتعزّز قيمها، وتعضد العوامل المشتركة بينها فَتُسهم في بناء الأمة الواحدة والمتّحدة.

تعرّض الأدب في العهد العثمانيّ وما زال يتعرّض لحملات كثيرة من التشكيك والطعن في كلّ مجالاته: بدءا من اللّغة، ومرورًا بالأسلوب، والقضايا والأفكار الّتي يتناولها، وانتهاء بالقيم والمفاهيم الّتي سعى إلى بثّها في الأجيال وتنميتها.

قاد تلك الحملات كثير من المستشرقين، وسار على هداهم كثير من تلاميذهم من أبناء هذه الأمة عن قصد أو غير قصد، فبات معظم هذا الأدب يوصف بالجمود والرّكود، ووُصِف العصر كلّه بالانحطاط والتخلّف، وعزف أكثر الدّارسين والباحثين عنه.

منذ عدّة عقود بدأ بعض الباحثين يُميطون اللّثام الأسود عن وجه هذه الحقبة، فبدأت تتكّشف بعض معالم الأدب في العهد العثمانيّ على غير الصورة الّتي رسمها هؤلاء المستشرقون وتلاميذهم.

من تلك المعالم الّتي رأيتها جديدة في الأدب في العهد العثمانيّ، بعضُ الظواهر المشتركة الّتي تسهم في بيان حقيقة هذا الأدب، مع ملاحظة أن لفظة "الأدب" تتجاوز عندي النتاج الشِّعري والنَّثري المعروف لدى أكثر الدّارسين إلى المؤلفات الّتي صنّفها علماء الأمة في العهد العثمانيّ في فروع المعرفة كلّها، وما يمكن أن أُسمّيه "بالنَّثر التأليفيّ".

وأهم الظواهر المشتركة الّتي تناولتها في هذا البحث، هي:

أولا- اللّغات الّتي يُكتبُ بها الأدب.

لقد سادت اللّغة العربيّة في البلدان الّتي دخلها الإسلام، وحكمها الخلفاء المسلمون منذ بدء الفتوحات الإسلاميّة زمن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وحتّى بداية القرن الحادي عشر الهجريّ تقريبًا، لقد كانت لغة الدّين، والحُكم، والعلم، فأقبل المسلمون وغير المسلمين ممّن يعيشون في أرض الإسلام على إتقانها، واتّخذوها وسيلة لنشر علومهم، فألفوا بها في كلّ صنوف المعرفة؛ إنسانية كانت، أم علميّة، إلى جانب ذلك لجأ عدد غير قليل من العلماء إلى التأليف بلغاتهم القوميّة، لكنّ كثيرين من هؤلاء العلماء، كانوا يلجأون إلى ترجمة تلك المؤلفات باللّغة العربيّة، للاعتبارات سالفة الذكر، وذلك إذا ما لاحظوا شيوع مؤلفاتهم بلغاتهم القوميّة، وطلبها الخاصة والعامة في بقاع أرض الإسلام.

مع بداية الفتح العثمانيّ للولايات العربيّة في أوّل العقد الثالث من القرن العاشر الهجريّ، أخذت اللّغة التركيّة تنتشر بين المسلمين بعامة، والعرب منهم بخاصّة، وذلك لأسباب عديدة، أهمها: أنّها كانت لغة أهل الحُكم، والقضاء من آل عثمان والأتراك، بعد ذلك تسلّلت اللّغة الفارسيّة لكنْ بوتيرة أقل، وسبب ذلك هو هجرة كثير من علماء السنة المسلمين من بلاد فارس وخراسان بعد سيطرة الصفويين الشّيعة الاثني عشرية على الحُكم، والاضطهاد الّذي مارسوه على المسلمين، وإجبارهم بالقوة والقهر على تغيير دينهم الإسلاميّ. وكان محطّ كثير من هؤلاء العلماء دمشق الشام باعتبارها مركزًا علميًا تاريخيًا، وحافظت على مكانتها تلك أيام دول الترك والجركس والعثمانيّين.

وأتقن كثير من السّلاطين العثمانيّين اللّغة العربيّة، وقال بعضهم فيها شعرًا، كما أنّ الولاة والقضاة الأتراك في الولايات العربيّة بعامة وفي بلاد الشام بخاصة كانوا يتقنون اللّغة العربيّة، وبعضهم نظم الشعر فيها أيضًا، وألّف بها كثيرًا من المؤلّفات العلميّة والدينيّة.

وبذلك سادت في هذه الحقبة من العهد العثمانيّ ثلاث لغات في الأدبين العربيّ والتركيّ وهي: اللّغة العربيّة والتركيّة والفارسيّة[1].

ومِمّنْ تعلّم التركيّة والفارسيّة من العلماء المسلمين:

1. والشيخ حسين الحافظ التبريزيّ الشّهير بابن الكربلائي (ت 997ه) ورد دمشق حاجًّا سنة (988ه)، فأعجبته، وأقام بها بعد الحج. وقد أتمَّ البوريني عليه تعلّم الفارسيّة فقال عنه: "ومنه تعلّمت لسان الفارسيّة، وكنت أعرفه قبل صحبته في الجملة، لكنْ ما استكملتُ تعلّمه إلّا منه"[2]. وكان مؤرّخًا عارفًا بتاريخ العجم، وشاعرًا وكاتبًا.
2. أسد الدّين بن معين الدّين التّبريزيّ الشّافعيّ (ت988ه)، قدم دمشق من بلاد فارس (تبريز)، وقد تعلّم اللّغتين العربيّة والتركيّة وكان عالما محقّقًا، متبحّرًا في العربيّة والمنطق والأصول والفقه، وقد جرت بينه وبين تلميذه البوريني مراسلات ومكاتبات شعرية ونثرية، ومدح كلّ منهما صاحبه، وأشاد به كثيرًا[3].
3. والشيخ العالم عماد الدّين السّمرقنديّ(ت1015 ه) قدم دمشق سنة (989ه)، وكان متبحّرًا في أنواع المعارف، وفضائله كثيرة، وكان عالمًا في المعقولات والمنطق، وقرأ عليه الحسن البوريني وغيره من علماء دمشق[4].
4. الحسن بن محمد البوريني (ت 1024ه) وكان تعلّمه وسيلة فخر له، قال[5]:

فإن كنتُ بين الأعجمينَ فمُعْرِبٌ وإن كنتُ بين المُعربينَ فمُعْجمُ جج

---

[1] انظر: ليلى الصباغ، من أعلام الفكر، 10-12.

[2] البوريني، تراجم الأعيان، 166/2.

[3] انظر ترجمته: البوريني، تراجم الأعيان، 34/2؛ نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، 127/3؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات، 438/8.

[4] انظر: مشهور الحبازي، الحسن البوريني، 90/1. وله ترجمة في: المحبي، خلاصة الأثر، 306/3.

[5] انظر: مشهور الحبازي، الحسن البوريني، 40/2.

فـأغـدو بـأشـــواقي إلـيـكـم مـتـرجـمًـا وســـرّكـمُ في خـاطري لـيسَ يُعلـمُ

جج

5. وفضـــلًا عن هؤلاء العلماء وغيرهم. كان الســـلطان ســـليمان القانوني (ت 974ه) عالمًا بكثير من العلوم والتواريخ والأدب، ويعرف: التركيّة والفارســـيّة والعربيّة، "وكان ينظم الشِّـعر بالتركيّ والفارسـيّ، وله ديوان شـعر بالتركيّ مشـهور، وله ديوان شـعر بالفارسـيّة أكثره جيد يستعذبه الطّبع السّليم والذّهن المستقيم"[1].

ثانيا- سمات الأدبين العربيّ والتركيّ

على عكس ما بثّه كثيرون من دارسي الأدب العربيّ في العهد العثمانيّ من صفات تحطُّ من قيمة هذا الأدب؛ شعرًا ونثرًا، ومن دون أي أدلّة علمية حقيقية، بل سيرًا على ما نقلوه عن معلميهم من المستشرقين في منتصف القرن الرابع عشر الهجريّ- فإنّ مَنْ يدرس المؤلفات العديدة الّتي ترجم فيها مؤلّفوها للعلماء العرب والعجم من المسلمين في أرجاء دولة الخلافة الإسلاميّة العثمانيّة، يجد أَنَّ الأدب كان يسير على نهج العصور السّابقة، وأنَّ كثيرًا من الشِّعراء والكتّاب كانوا يُماثلون بل ربّما يَبزّون سابقيهم، وذلك على الرّغم من قلّة ما حُقّق ونشر من تلك المؤلّفات.

وظهر في الأدب العربيّ مئات الشِّـعراء والكتاب المبدعين في النصـف الأول من العهد العثمانيّ في الولايات العربيّة. ونظم الشّعراء شعرهم في الموضوعات التقليدية، والموضوعات المسـتحدثة، كما نظموا على أوزان الخليل بن أحمد الفراهيديّ، والزّجل والموشـحات، والدّوبيت[2]، والمواليا وغيرها. ومن هؤلاء الشِّعراء:

1- أحمد بن أحمد بن عبد الرحمن العناياتيّ النابلسيّ (ت 1014ه):

---

[1] علي بن بالي، العقد المنظوم، 377.

[2] الدّوبيت: لفظة فارسيّة مركّبة من كلمتين، الأولى: دو ومعناها اثنان، والثانية بيت ومعناها بيت بالعربيّ، ينظم فيه الشّاعر بيتين بيتين على وزن: "فَعْلُن، مُتَفاعِلن، فَعُولن، فَعِلُن"، وهو خمسة أنواع ولا يجوز فيه اللّحن. أخذه العرب عن الفرس وسمّوه الرّباعيّ. انظر: أحمد الهاشمي، ميزان الذّهب، 144.

ولد في مكّة المكرّمة وبها نشأ وتعلّم علومه الأولى، ثم رحل إلى نابلس فدمشق حيث استقرّ به المقام. وقد برع في علوم العربيّة والأدب والخط، وكان شاعرًا بليغًا وأديبًا ماهرًا، واشتُهر بالوصف، وبخاصة وصف الطبيعة الدّمشقية. وَصف البوريني شاعريته فقال: "أديب الزّمان، وشاعر العصر والأوان... وهو الأديب البارع، الّذي توحّد في أمر الأدب فلم يبق له مضارع"[1]. وكان العناياتيّ من المكثرين لشرب قهوة البنّ فقال عنه البوريني: "وكانت عادته في كلّ يوم على الصباح، أن يجيب -في الغالب- داعي الفلاح، ثم يسير إلى بيت من بيوت القهوة، يكن فيه الماء الجاري مع المليح الساقي والجلوة، ويشرب من قهوة البنّ أقداحًا، ويرتاح بها كأنّه عاقر راحًا، ثمّ يشرع في الكتابة"[2].

وبناء على ذلك كان العناياتيّ من مؤيدي شرب قهوة البنّ والدّاعين لتحليلها، وقد نظم أرجوزة في أوصاف قهوة البنّ وآداب شربها، وجاءت هذه الأرجوزة في ستة وسبعين بيتًا، منها قوله[3]:

حاناتُها دُخولها مُباح ليس على داخِلها جُناح جج

قد أجمع الناسُ على تحليلها كثيرِها في الشُّرب أو قليلِها جج

وقال:

والآن صَفِّ السمعَ للوجه الحسن في قهوة الأستاذ أبي الحسن جج

والعيدروس قد أحلّ شُربها فعاطِها ولا تُعارض شُربها جج

[1] البوريني، تراجم الأعيان، 92/1.

[2] البوريني، تراجم الأعيان، 93/1.

[3] العناياتي، ديوانه، 410-412.

تَـرى عـلـى شـاربـهـا وقَـارا وما عـلـى مَـنْ يـحـتسـيـهـا عـارا
جج
مـا أحـدثـت الّإ شـفـاء السُّـقـم مـن: مـغـصٍ وثـقـل، وبـلـغـم
جج

2- الحسن بن محمد بن محمد البوريني (ت 1024هـ)[1]:

ولد في صفورية قضاء صفد، لأب من بورين قضاء نابلس وأم صفورية، ونشأ وتعلّم فيها، ثمّ رحل إلى دمشق طلبًا للعلم، فأخذ عن كبار علمائها علوم الشّريعة واللّغة وبرع فيها. وعمل في التّدريس والقضاء. وصنّفّ (24) مؤلّفًا في مختلف العلوم. وله ديوان شعر كبير وكتاب تراجم بعنوان "تراجم الأعيان في أبناء الزمان". وله شعر في غاية الإبداع، وهو يفخر بنفسه وعصاميته فخر المتنبي. قال في رثاء أمه[2]:

سـقى اللهُ قبرًا في دمشـق تضـمّنت جـنـادُلـه شـخصًـا عـزيـزًا مـكـرَّمـا
جج
طلبتُ لـه سـقيـا الغـمـام وصُـنْـتـه عـن المـدمعِ الـهـتّـانِ أن مـازج الـدّمـا
جج
سـمحتُ على رغمي بـإيداعـه الثَّرى وقـد كـان عـنـدي مـن عـيـونيَ أكـرمـا
جج

وقال مفتخرًا بفضله[3]:

مـا ضـرّني إنـكـارُ بـعـضُ مـعـاشـرٍ فضـلـي وقـد شـهـدت بـه الأبصـارُ
جج
فـنـواظـرُ الـخـفّـاشِ تـعـمى عـنـدمـا تـبـدو الشّـمـوسُ وتـظـهـرُ الأنـوارُ
جج

[1] انظر ترجمته في: البوريني، تراجم الأعيان، 1/8-26؛ مشهور الحبازي، الحسن البوريني، 1/7-121.

[2] مشهور الحبازي، الحسن البوريني، 2/304.

[3] مشهور الحبازي، الحسن البوريني، 2/361.

وعلى الرّغم من انتقاد البوريني إقبال الناس في عهده على أكل المكيّفات بعامة، والبرش بخاصة[1]، إلّا أنّه أكل البرش، حتّى كان سببًا في وفاته، وممّا قاله في نقد إقبال الناس على البرش[2]:

عمَّ البلاءُ بأكل البرشِ فانتقصّت مَخايلُ الناس في خلقٍ وأخلاق جج

ولو تصوّرَ هذا الدّهرُ في رجلٍ لأبصرَتْهُ الورى في شكل ترياق جج

3- محمد أمين بن فضل الله المحبّي (ت 1111ه)[3]:

أصله من حماة ووُلد بدمشق ونشأ بها وتتلمذ على علمائها، فبرع في الخطّ والبلاغة والأدب؛ شعره ونثره، والتاريخ. وألّف عدّة مؤلفات من أهمها: "خلاصة الأثر في أعيان القرن

(1) المكيّفات هي: الكبف عند العامّة المزاج والسّرور. والمُكيّفات هنا هب: ما يأكله الناس من نباتات أو ما يُستخرج منها مثل: الحشيش والبرش والأفيون وغيرها للتّكييف (أي للشعور بالرّاحة والسُّرور جرّاء نسيان الهموم)، ولم أجد لهذه اللفظة شرحًا إلّا أنّ النّجم الغزّي استخدمها بما يُفيد هذا المعنى، قال في أكل حسن البورينيّ نبات البرش:"ومن غريب ما اتّفق له أنّه كان لا يتكيّف، ولا يأكل من المُكيّفات شيئًا حتّى قال شعرًا لإكباب النّاس على ذلك". نجم الدّين الغزي، لطف السمر، 376/1. البرش هو: خلاصة عشب مُخدّر كالأفيون، كان أهل الشّام يحصلون عليه مُصنّعًا من مصر. وقيل هو: عُصارة مستخلصة من رؤوس الخشخاش وأوراقه، ويُترك بعد عصره ليتبخّر حتّى يتحوّل إلى معجون صلب يُليّنونه بالعسل وعقاقير أخرى، تنزع منه رائحته البشعة ومرارته وحموضته. يُسبب تعاطيه بعض التّنبيه ثمّ الخدر والنّعاس. ومَنْ يعتاد تعاطيه تضعف أعصابه، ويفقد شهيّة الأكل إلّا للفواكه، ويضحك من دون سبب، ويُغنّي، ويحكي قصصًا في أوّل تناوله ثمّ يغطُّ في نوم عميق، ويكون هزيل الجسم، شاحب اللّون على وجهه صُفرة، ولا يستطيع التوقّف عن تناوله بسهولة. وكان الصّيادون يمزجونه مع الطّعام، ويُقدّمونه للطّيور؛ لتخديرها وصيدها. انظر: البوريني، تراجم الأعيان، 74/1 حاشية (1)؛ ليلى الصباغ، من أعلام الفكر العربيّ، ص202 حاشية(3)؛ المنجد في اللغة والأعلام، 705.

(2) مشهور الحبازي، الحسن البوريني، 112/2.

(3) انظر ترجمته في: المحبي، نفحة الريحانة، 4/1-34؛ المرادي، سلك الدرر، 86/4-105.

الحادي عشر"، و"نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة"، و"ديوان شعر"، و"قصد السبيل فيما في اللّغة من الدّخيل". قال عنه المراديّ: "الشّاعر الماهر، الفائق الحاذق النّبيه، أُعجوبة الزّمان"[1]. ومن شعره قوله يمدح إستانبول معارضًا أبيات الحريري في مدح البصرة[2]:

بلادٌ قد حوت كلّ الأماني نَبِيتُ بها ونُصبحُ في أمانِ جج

هي البلد الأمينُ فليس نخشى بها ظلمًا سوى جَوْرِ الغواني جج

حدائقُها من الرّوضات حسنًا هي الفردوسُ من بين الجنانِ جج

وبقعتها من الدّنيا جميعا بمنزلةِ الرّبيع من الزّمانِ جج

وكوثرُها على الحصباء يجري كذوب التّبر سالَ على الجُمانِ جج

إذا صدحتْ بلابلُها أجابتْ كواكبُها بأنوار الحسانِ جج

4- محمد بن محمد بن عبد السلام، أبو الفتح التونسيّ المالكيّ (ت 975هـ)[3]:

أصله من تونس، وسكنت عائلته إقليم الخروب بلبنان ثمّ دخل دمشق صغيرًا متصوّفا، ثمّ تغيّرت أحواله. "وكان علّامة في النّحو والصّرف والمعاني والبيان والبديع والعروض والمنطق، وأكثر العلوم العقليّة والنّقليّة، وكان له الباع الطّويل في الأدب ونقد

[1] انظر: المرادي، سلك الدرر، 4/ 102.

[2] انظر: المرادي، سلك الدرر، 4/ 105.

[3] انظر ترجمته في: البوريني، تراجم الأعيان، 249/1، شهاب الدّين للخفاجي، خبايا الزوايا، ق49/ب؛ ريحانة الألبا، 174/1؛ نجم الدّين الغزي، الكواكب السائرة، 21/3.

الشِّــعر، وشــعره في غاية الحســن إلّا أنّه كان متكيّفًا؛ يأكل البرش والأفيون كثيرًا، لا يكاد يصحو منه"[1].

وكان هجاءً، مغاليًا في نصــرة قهوة البنِّ، وعمل في التّدريس والإفتاء. من شــعره في تأريخ عمارة حمّام بناه مصطفى باشا تحت قلعة دمشق[2]:

لمـّـا كـمـلـت عـمـارة الـحـمّـام وازداد بـه حسـنُ دمشـق الشّـام جج

قـلـتُ طـربًـا وأرّخـت مـنشـئًـا حـمّـامـك أصـل راحـة الأجسـام جج

وقال في قهوة البنّ[3]:

أقـولُ لـقـوم قـهـوةَ الـبـنِّ حـرّمـوا مـقـالـةُ مـعـلـوم المـقـام فـقـيـه جج

فـلـو وُصِـفَـت شـرعًـا بـأدنى كـراهـةٍ لما شُـربتْ في مـجـلـسٍ أنـا فـيـه جج

وأجاب مَنْ سأله عن قهوة البنّ أحرام أَم حلال هي فقال[4]:

يـا سـائـلـي عـن قـهـوة الـبـنِّ الّـتي كـم مـن فـتى عـلى هـواهـا مـا فـتى جج

سـألـتَ عـنـهـا، وبـهـا خـبـيـرا فـاسـتـمعِ الـتـحـقـيـقَ والـتـحـريـرا جج

---

(1) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، 21/3. والأفيون هو: عصارة لبنيّة تُستخرج من نبات الخشخاش يستخدمها المدمنون للتّخدير. انظر: إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط، 22/1؛ المنجد في اللّغة والأعلام، ص13؛ ليلى الصّبّاغ، من أعلام الفكر العربيّ، 202 حاشية(3).

(2) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، 23/3.

(3) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، 25/3.

(4) البوريني، تراجم الأعيان، 254/1.

واعلم على طريقة الإجمال بأنّها من جملةِ الحلال جج
وأنَّ حكمَ شُربها الإباحة يثخِنُ مَنْ حَرّمها جِرَاحه جج
ويستحقُّ الخزيَ والنَّكالا لأنّه قد حرَّم الحلالا جج

وقد ظهر في النصف الأول من العهد العثمانيّ عدد غير قليل من الأدباء الأتراك الّذين أجادوا في المنثور والمنظوم، وبلغ بعضهم مصاف شعراء العربيّة الكبار في قول الشِّعر. وأورد عدد غير قليل من مؤرخي تلك الحقبة الزّمنية نماذج جميلة ورائقة، من نظمهم ونثرهم في موضوعات القول المختلفة. قال المحبيّ: "وقد خرج جماعة من أعيانهم، زانوا الأدب، وزيّنوه بحسن بيانهم؛ أشعارهم بالألسنة الثلاثة (أي بالعربيّة والتركيّة والفارسيّة) حجةُ أهل اللّسَن، وفاضحةُ المُذْهبات الثلاث: الماء والخضرة والوجه الحسن"[1].

وقد طرق هؤلاء الشّعراء موضوعات الشِّعر العربيّ التقليدية من: مدح، وهجاء، ورثاء، ووصف، وغزل، وعتاب، وفخر، وحماسة، ومديح نبوي وغيرها. كما شاركوا في الموضوعات الّتي استحدثها شعراء الحقبة من مثل: المكيفات، وقهوة البنّ، والدّخان، والأحاجي والألغاز والمُعَمّيات، والتأريخ الشِّعريّ وغيرها من فنون القول. ومن هؤلاء:

1- عبد الباقي بن محمد الشهير بعارف[2]:

كان بحرًا في العلوم، والأدب والتاريخ وأخبار الدول، كما برع في الخطّ، وله شعر رائق. التقاه المحبيّ في إستانبول، ودمشق، ثمّ القاهرة حيث صحبه للعمل معه فيها. وقد وصف

[1] المحبي، نفحة الريحانة، 7/3.

[2] انظر ترجمته في: المحبي، نفحة الريحانة، 17/3.

شـــعره المحبيّ فقال: "وقد أخذتُ من أشـــعاره الّتي جاوز الشِّـــعرى تَراقِيها، وكأنّما نَظْمُ المحاسنِ عُقِدَ في تَراقيها، ما لو ضَربتْ بيوتَها بالحجاز، لأقرَّتْ لها العربُ العاربةُ بالإعجاز"[1].

وأورد له المحبيّ قصيدة في مدح الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، من سبعة وثلاثين بيتا، بناها على ما تبنى عليه قصائد المديح النبويّ ومنها قوله[2]:

أَلا أيُّهـا الحـادي تـرفّـق بـمـهـجـتي وبـالـيـعـمـلات الـدّاميـات المـنـاســم جج

أَحــنُّ ادّكـارًا نـحــو مُـعــرج الـلّــوى وأَصـــبــو إلى ســـفـح الـنّـقـا فـالأنـاعـم جج

فـيـسِّـــر إلـهي أن أُعـفِّـر جـبـهتي بســـاحـات هـاتـيـكَ الـرُّبى والمـعـالـم جج

ومنها:

تَرى طَيبةً قـد صـــارَ مـأوى شَـــفيعِنـا حَـلـيـفِ الـنَّـدى فَـخـرِ الـجُـدودِ الأكارِمِ جج

مـحـمّـدٍ المـبـعـوثِ بـالـبـرِّ والـتُّـقـى وبـــذلِ نـــوالٍ واقـــتـــنـــاء مـــكـــارِمِ جج

طـرازُ رُواءِ الـفضـــلِ مـن نسْـــلِ يـعـربٍ وإنســـانُ عـين المجـدِ مـن آلِ هـاشـــمِ جج

شَـــفـيـعُ ذوي الآثـام نـيـطَـتْ بـحـبّـه إزاحـــةُ آثـــامٍ وصـــفـــحُ جـــرائـــمِ جج

ملائكـةُ الـرّحـمـن أمســـت وأصـــبـحـت تـطـوفُ ذراهـا كـالـطّـيـور الـحـوائـمِ جج

[1] المحبيّ، نفحة الريحانة، 18/3.

[2] ن.م.، 19/3.

وليس يُسامى النَّجمُ سُدَّةَ بابهِ فمن يعتلي السَّما بالسَّلالمِ جج

وله شعر كثير في مدح الوزراء والأعيان في الدولة العثمانيّة، ومنه قصيدة مدح بها الوزير مصطفى بن محمد باشا الكوبريّ (ت 1095 ه)، وهو أخو الوزير أحمد باشا الكوبريّ (ت 1087ه)، الّذي أسّس خزانة كتب لا تزال تُعرف باسمه، قال يمدح الوزير مصطفى الكوبريّ ويذكر صفاته الّتي لا تختلف هن تلك الّتي مدحَ بها شُعراء العربيّة السابقين من رجال السياسة، قال[1]:

فها هو ذا الصّدرُ الكريم الّذي غدا عديمَ المداني غيرَ مُشترك النّجرِ جج

سميُّ النبيّ المصطفى الناشرُ اللُّهى غزيرُ النّدى شمسُ العلا الواسعُ البِرّ جج

مُعزُّ أَساسِ الدّينِ مُحيي رُسومِه مُذِلُّ رقاب المعتدينَ ذوي الكُفر جج

وناظمُ شملِ الدّين للمالِ ناشرٌ يفوقُ الورى في ذلكَ النظمِ والنَّثر جج

تطاولَ للأحرارِ حيثُ استرقَّهم بفكِّ عُناةٍ منهم عن يَدِ الأسرِ جج

وصارَ له خوضُ الحروبِ سجيّةً ولم يكُ يسطو في المعارك بالبترِ جج

2- زكريا بن بيرام، شيخ الإسلام[2]:

ولد بأنقرة وبها نشأ وتعلّم علومه الأولى، ثمّ رحل إلى إستانبول، فتتلمذ على عدد من علمائها، ومنهم: المولى عبد الباقي المشهور بعرب زاده، ثمّ سافر إلى القاهرة في خدمة معلول

[1] المحبي، نفحة الريحانة، 24/3.

[2] انظر ترجمته في: المحبي، خلاصة الأثر، 173/2؛ نفحة الريحانة، 59/3؛ الشرواني، حديقة الأفراح، 123.

أمير سنة (950هـ)، بعد ذلك عمل بالتدريس في إستانبول، ثمّ تولى قضاء حلب سنة (980هـ) ثمّ قضاء العساكر بأناضولي وروم إيلي[1]، وفي سنة (1001هـ) تولى الإفتاء إلى أن توفّاه الله في السنة ذاتها، فدفن بإحدى المدرستين اللَّتين كان بناهما قرب جامع السلطان سليم الأول بإستانبول.

وكان عالمًا في العلوم العربيّة والشريعة الإسلاميّة والمنطق، "وكان مع تبحُّره في المنقول والمأثور، جامعًا بين حسن المنظوم ورونق المأثور، وله فيهما ما تقف الفصاحةُ عنده، وتقفُو البلاغةُ حدَّه"[2]. وله شعر في: المدح والغزل والوصف والتقريظ وغيرها، وممّا قاله في تقريظ كتاب "الطبقات السّنية في تراجم الحنفية"، لتقي الدّين بن عبد القادر التميميّ الغزّي (ت 1005هـ)[3]:

هذا كتابٌ فاقَ في أقرانه ... يسبي العقولَ بكشفهِ وبيانِهِ جج

سِفرٌ جليلٌ عبقريٌّ فاخرٌ ... سحرٌ حلالٌ جاء من سَحْبانه جج

أَوراقُه أشجارُ روضٍ زاهرٍ ... قد تُجتني الثَّمراتُ مِن أَفنانهِ جج

---

[1] قاضي عسكر الروملي: القاضي الّذي يتولّى منصب قضاء الجيش العثماني في ولاية الرّوملي (أي الأرض العثمانية في أوروبا والجزر)، وهي الولاية العثمانية الأولى. قاضي عسكر الأناضولي: القاضي الّذي يتولّى منصب قضاء الجيش العثمانيّ في ولاية الأناضول، وهي ثاني الولايات العثمانية، ومهمّة القاضي اصدار الأحكام والفتاوى الشّرعيّة، والرّد على الاستفسارات الموجهة إليه من أفراد المجتمع، ويتبعه القضاة في ولايته. وقد كان قاضي العسكر في عهد السلطان محمد الفاتح هو الّذي يُصدر الفتاوى والأحكام الشّرعيّة فقط. وفي عام(885 هـ) انقسم إلى قسمين هما: قاضي عسكر الأناضول، وقاضي عسكر الروملي، ومكانة قاضي عسكر الروملي أعلى من الأناضولي، وتأتي مباشرة بعد مشيخة الإسلام. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي، 45-46، و174-175؛ مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب، 214، و344.

[2] المحبي، نفحة الريحانة، 60/3.

[3] المحبي، نفحة الريحانة، 60/3.

للهِ درُّ مُـــؤلّـــفٍ فـــاقَ الـــورى بـــفـــرائـــدٍ فـــغـــدا فـــريـــدَ زمـــانـــهِ
جج
فـــجـــزاهُ ربُّ الـــعـــالمـــيـــنَ بـــلُـــطـــفـــهِ طـــبـــقـــاتِ عِـــزٍّ في فســـيـــحِ جـــنـــانـــهِ
جج

3- علي بن محمد المعروف برضائي، وهو سبط شيخ الإسلام زكريا (ت 1039ه)[1]:

كان شـــاعرًا خفيف الرُّوح، له شـــعر بالتركيّة والعربيّة في: المدح والرثاء والدّخان والوصـــف والغزل. ولي القضـــاء بمصـــر، اختصـــر كتاب "خريدة القصـــر وجريدة أهل العصـــر" للعماد الكاتب الأصـــفهانيّ (ت597ه). وهو كتاب ترجم فيه لشـــعراء عصـــره ما بين ســـنتي (500 و570ه)، وقسَّم مَنْ ترجم لهم حسب الأقاليم. فقِسْم لشعراء الشام، وثانٍ لشعراء مصر، وثالث لشـــعراء العراق وهكذا. وقد جعل عنوان كتابه المختصـــر "عود الشـــباب". قال في تقديمه لهذا المختصـــر: "فجاء بحمد الله، تعالى، غادة تســـحرُ القلوب بألفاظها القُسِّـــيّة، وألحاظِها البابليّة؛ تصيدُ القلوبَ بألحاظها الّتي زيّنها الجمالُ بالفتور، فمن نظر فيه يشتعلُ قلبُه بالنار، وتكتحلُ عينه بالنّور.

وإنّي غير آمل من أبناء الزمان تحســـينَهم، وبقلادةِ حُســـن القبول توشـــيحَهم وتزينَهم، فإنّ مَنْ جرّب الناس في أمرهم، يعرف أنّ الناسَ مشـــتقّون من دهرهم، بل ما نؤمّلُه من كرمهم الفسيح أن لا يُورِّدوا وجهه بالتَّصريح بأنه قبيح.

إنّـــا لـــفـــي زمـــن تَـــرْكُ الـــقـــبـــيـــح بـــه من أكثر النّـــاس إحســـانٌ وإجـــمـــال" [2].
جج

يتّضح من هذا النص ثقافة الأديب الواسعة الدينية، والأدبية واللغوية، فقد اقتبس من القرآن الكريم، وضـــمّن من الأدب العربيّ، فالألفاظ القســـيّة مأخوذه من بيان قسّ بن ساعدة الإياديّ. و"الناس مشتقون من دهرهم" مأخوذة من قول العلاء الواسطيّ:

[1] انظر ترجمته في: المحبي، خلاصة الأثر، 187/3؛ نفحة الريحانة، 68/3؛ الشرواني، حديقة الأفراح، 124.
[2] المحبي، نفحة الريحانة، 69/3-70.

النّاسُ مُشْتقُون من دهرهم طبعًا فمن ميَّزَ أو قاسا جج
يمتحن الدّهر وأحواله مَنْ شاءَ أنْ يمتحنُ النّاسا جج

والبيت الأخير للمتنبيّ[1].

ومن شعره في الدّخان[2]:

غليونا حين همّت كلّ نائيةٍ به وسامَرنا همٌّ وأفكارُ جج
قد اهتدينا إلى شرب الدُّخان به كأنّه علمٌ في رأسه نار جج

وهو هنا يضمّن عجز بيت للخنساء من قصيدة رثت بها أخاها صخرًا، وأوله: "وإنّ صخرًا لتأتمُّ الهُداةُ به"[3].

وله شعر بالتركيّة عرّبه المحبيّ، ومنه في الغزل[4]:

جرَّد لي من ناظريه مُرهفًا ومثلُه من حاجبيه عاطبي جج
حيّرني فديتُه أأغتدي قربانَ عينيه أم الحواجب جج

[1] انظر: العكبري، التبيان، 287/3. وهو من قصيدة مطلعها:

لا خيل عندكَ تُهديها ولا مالُ فليسعدُ النَطقُ إن لم تُسعد الحالُ

[2] المحبي، خلاصة الأثر، 188/3؛ نفحة الريحانة، 71/3.

[3] انظر: الخنساء، ديوانها، ص73.

[4] المحبي، نفحة الريحانة، 72/3.

4- فيض الله بن أحمد القاف، قاضي العسكر (ت 1020هـ)[1]:

كان عالما بالعلوم الشّرعية وباللغتين العربيّة والتركيّة. وعمل بالتدريس والقضاء، فولّي قضاء حلب ثمّ دمشق، ثمّ قضاء الغَلطة بتركيا، وأخيرًا تولى قضاء العسكرين (أي الأناضولي والروم إيلي). وكان علّامة بالبلاغة والنّحو، وشعره رائق. قال فيه المحبيّ: "وهو وإن كان من الرّوم خرج، فطبعُه بالعربيّة البحتة امتزج، ترنو البلاغة عن أحداقه، وتطغى الفصاحةُ بين أشداقه؛ فإذا حاضرَ فما الدّر إذا ارتصف، وإن شَعرَ فما ابن الرُّوميّ إذا نَعت أو وَصف"[2].

وكان شعره من فيض الله وفضله، وقد مدح السلطان مراد بن سليم، رحمه الله، عندما فتح مدينة تبريز عاصمة الصفويين سنة (993هـ) بقصيدة منها قوله[3]:

للهِ درُّ جيوش الرّومِ إذْ ظهروا على الرّوافض قد صارت بهم عِبَرُ جج

كم أبدعوا بِدَعًا سبًّا ومظلمةً لهم قلوبٌ يُحاكي لينُها الحَجرُ جج

فالنّاسُ تجأَرُ للرّحمنِ من يدهم واللهُ يسمعُ منهم كلّما جأروا جج

وعندما ما اقترب الجيشُ العَرَمْرمُ من تبريزَ ثم بدا في ذاتهم خَورُ جج

فشجَّعوا أَنفسًا منهم قد امتلأت جُبنًا وقد طاشتِ الأحلامُ والفِكرُ جج

ظنّوا بأنّ الليالي نحوَهُم نظَرَتْ فأخطأَ الظَّنُّ لمّا أَخطأ النَّظرُ جج

---

[1] انظر ترجمته في: المحبي، خلاصة الأثر، 288/3؛ نفحة الريحانة، 93/3.

[2] المحبي، نفحة الريحانة، 93/3.

[3] المحبي، خلاصة الأثر، 291/3؛ نفحة الريحانة، 94/3.

5- محمد بن مصطفى بستان (ت 1006هـ)[1]:

برع في اللغات: التركيّة والعربيّة والفارسيّة، وتعلّم العلوم الشرعية، وبخاصة الفقه والأصول والحديث. وعمل في القضاء فتولى قضاء دمشق ومصر ثمّ العسكرين، ثمّ تولى إفتاء الدولة العثمانيّة. وقد نظم الشِّعر بالعربيّة والتركيّة، ومن شعره بالعربيّة قصيدة رثى بها السّلطان سليمان القانونيّ، رحمه الله، (ت974هـ)، منها قوله[2]:

أَلا أَيُّها النَّاعي كأنّك لا تدري بما قلتَ من سوءِ المقالةِ والشَّرِ جج

أسَلْتَ سيوفَ الموتِ في الدَّهرِ بغتةً وقد بلغ السَّيلُ الزُّبى من جوى الصّدرِ جج

وشَقَّت قلوبَ المسلمين جراحةٌ بصارمِ سيفٍ قد مضَى ماضيَ الأمرِ جج

ثمّ ذكر صفاته مُؤبّنًا، فقال:

هُمامٌ على هامِ المَمالكِ تاجُه أمينٌ رشيدٌ في الخلافةِ ذو قَدْرِ جج

فأعني جوادًا في جوادٍ بذكرِهِ لقد سارت الرّكبانُ في البرّ والبحرِ جج

عزيمتُه في البحرِ كانت عظيمةً وهمّتُه فاقتْ على الأنجمِ الزُّهرِ جج

وأيامُه كالشّمس كانت مضيئةً وأعوامُه في الحسنِ من البدرِ جج

[1] انظر ترجمته في: المحبي، خلاصة الأثر، 223/4؛ نفحة الريحانة، 73/3.

[2] المحبي، خلاصة الأثر، 223/4.

6- محمد بن أحمد بن عبد الله المعروف بمامية (ماماي) (ت 987هـ)[1]:

أصله من تركيا، والتحق والده بالإنكشارية[2]، وقدم دمشق وهو صغير مع أسرته، وصار إنكشاريًا ثمّ اعتزل. ودرس اللّغة العربيّة والعلوم الشرعية، فبرع في الشِّعر والنَّثر وقال الموشّحات والمواليا والزّجل والقصيد العربيّ التقليدي على البحور العروضية. وعمل بالترجمة في المحاكم. وشارك في الجدل الّذي ثار بين الأدباء والفقهاء حول قهوة البنّ، فقال بتحليلها، ودعا لشُربها وتغنّى بها. وممّا قاله فيها[3]:

أنا المعشوقةُ السَّمرا أُجلّى في الفناجينِ جج

وعودُ الهند لي عطرٌ وذكري شاعَ في الصينِ جج

وقال في الحكمة[4]:

تأمّل في الوجوه بعين فكرٍ ترى الدّنيا الدّنية كالخيالِ جج

ومَنْ فيها جميعا سوف يَفْنى ويبقى وجه ربّك ذو الجلالِ جج

---

(1) انظر ترجمته في: ابن أيوب الأنصاري، الروض العاطر، ق253/أ؛ النجم الغزي، الكواكب السائرة، 50/3؛ الشهاب الخفاجي، خبايا الزوايا، ق46/ب؛ ريحانة الألبا، 158/1؛

(2) الإنكشاريّة: كلمة تركيّة مكونة من مقطعين، يني: جديد، وتشري: جيش أو جند، أي الجيش الجديد. ويُقال: الينكجريّة. وكانوا يشكلون عنصر المشاة في الجيش ويتمركزون في إستانبول، ثمّ عمّ اللفظ على الجيش العثماني كلّه. وقضى عليهم السّلطان محمود الثاني سنة (1241هـ). انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي، ص41؛ مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب، 50.

(3) العيدروسي، النور السافر، 265.

(4) ابن أيوب الأنصاري، الروض العاطر، ق254/ب.

وقال مؤرّخا سبيلا أنشأه أحمد بن سليمان، سيف الدّين[1]:

هـذا السَّـبـيـلُ الأحـمـديّ للهِ مـا فـيـه خـفـا جج

يـا قـارئًـا تـاريـخَـهُ اشـرب هـنـيـئـا بـالشّـفـا جج

ثالثا- أدب الرّحلات

عرف العرب الرحلة منذ قديم زمانهم، لا بل هم من أكثر المخلوقات رحلة؛ إذ طبيعة بلادهم في شـبه جزيرتهم كانت تفرض عليهم الارتحال بحثا عن الماء والعشـب، والمُجير، كما أنّهم عرفوا الرّحلة في التجارة، وأكد ذلك القرآن الكريم عندما ذكر رحلتهم في الشتاء والصيف.

ولمّا مَنّ الله، سـبحانه وتعالى، عليهم بالإسـلام، رفعهم درجات، فسـاحوا في الأرض ينشرون الدّين الجديد؛ ليُخرجوا النّاس من الظّلمات إلى النّور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، وذلك اسـتجابة لأمر الله، سـبحانه وتعالى. وأخذ كثيرون يُدوّنون تنقّلهم في البلاد، برحلات أدبية بدأت تظهر منذ القرن الثالث الهجريّ وحتّى العهد العثمانيّ.

في العهد العثمانيّ زاد أدب الرحلات بشـكل غير مسـبوق، وذلك لعوامل كثيرة من أهمها: سعة أراضي دولة الخلافة الإسلاميّة، وقوّتها الاقتصاديّة والعسكريّة، ورغبة العلماء في زيارة مناطق الدولة الإسـلاميّة، وطلب العلم، والتعليم، وزيارة المقدّسـات الإسـلاميّة، وبخاصـة: المسـجد الحرام، والمسـجد النبويّ، والمسـجد الأقصـى المبارك، وغيرها من المقدّسـات في مختلف مناطق العالم الإسـلاميّ، والرحلة إلى عاصـمة الخلافة الإسـلاميّة إستانبول.

وقد صنّف الرّحالة المسلمون؛ عَربًا وأتراكًا، رحلاتهم باللّغتين العربيّة والتركيّة، وكانوا يكتبونها بالنَّثر أو ينظمونها شـعرًا أو يجمعون في تأليفها بين الشِّـعر والنَّثر. وممّن وضـع الرّحلات من الرّحالة المسلمين:

[1] ابن أيوب الأنصاري، الروض العاطر، ق254/ب.

1- الحسن بن محمد البوريني (ت 1024هـ). وضع ثلاث رحلات هي: المنازل الأنسية في الرّحلة الطرابلسيّة، قام بها إلى طرابلس الشام سنة (1008هـ)، وضعها نثرًا. والرحلة الحلبيّة، قام بها إلى حلب سنة (1017هـ) وصنّفها نثرًا وشعرًا. والرحلة الحجازيّة، قام بها سنة (1020هـ)، وقد نظمها شعرًا، إذ جاءت في (57) بيتا، ذكر في الأخيرة خط مسير رحلته من دمشق الشام إلى مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، حيث أدى فريضة الحج، ثمّ عودته إلى دمشق، وبعض ما كان يحصل في ركب الحاج الشاميّ، الّذي كان قاضيا له[1].

2- يحيى بن أبي الصفا المعروف بابن محاسن (ت 1053هـ)، وضع رحلة باسم "المنازل المحاسنيّة في الرّحلة الطّرابلسيّة"، قام بها سنة (1048هـ)، وقد استوحى اسم رحلته من رحلة جدّه لأمّه الحسن البوريني[2].

3- عبد الغني بن إسماعيل النابلسيّ (ت 1143هـ) وضع عدّة رحلات منها[3]: "حلة الذّهب الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز" سنة (1100هـ)، و"الحضرة الأنسيّة في الرّحلة القدسيّة" سنة (1101هـ)، ووصف فيها رحلته من دمشق إلى القدس والخليل ذهابًا وإيابًا، ووضعها بالنّثر والشِّعر، و"الحقيقة والمجاز في رحلة الشّام ومصر والحجاز" سنة (1105 هـ)، و"التّحفة النابلسّية في الرّحلة الطرابلسيّة" سنة (1112هـ).

رابعًا- بيوت العلم

من المعلوم في التاريخ العربيّ توارث العلم، والمهن، وذلك منذ العصر الجاهليّ وحتّى يومنا هذا، فالشِّعر كان ينتقل في عائلات وقبائل، وكذلك المهن. وقد أشار أكثر من دارس إلى توارث الشِّعر، وفي القرن السابع الهجريّ ذكر ابن أبي أُصيبعة في كتابه "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" ما لاحظه من توارث الطّب في عائلات عديدة، ومنها عائلته هو نفسه.

---

[1] انظر: مشهور الحبازي، الحسن البوريني، 158/1.

[2] انظر: ابن محاسن، المنازل المحاسنية، 23.

[3] انظر: جرجي زيدان، تاريخ آداب، 345/3.

في القرنين العاشـــر والحادي عشـــر الهجريين، برزت هذه الظاهرة بل الميزة بشـــكل واضح ومُثير للاهتمام، فمَنْ يُطالع كتب التراجم الّتي وضعت في هذين القرنين، وما بعدهما حتّى القرن الخامس عشر الهجريّ وإلى عصرنا الحاضر يلاحظ وجود بيوت علم مشهورة في العالم الإسلاميّ بعامة، وبلاد الشام ومصر والعراق وتركيا بخاصة.

لقد استعرضتُ عددًا من كتب التراجم الّتي وُضِعَت في هذه الحقبة، فلاحظت تأكيد هذه الظّاهرة البارزة. ومن تلك الكتب: "دُر الحبب في تاريخ حلب" لابن الحنبليّ (ت 971هـ) و"الرّوض العاطر" و"التذكرة" لابن أيوب الأنصاري (ت 1003هـ)، و"تراجم الأعيان" للحسن البوريني (ت 1024هـ)، و"الكواكب الســـائرة" و"لطف السّـــمر" لنجم الـدّين الغزّيّ (ت 1061هـ)، و"خبايا الزوايا" و"ريحانة الألبا" لشـــهاب الدّين الخفاجيّ (ت 1067هـ)، و"معادن الذهب" لأبي الوفاء العُرْضـيّ (ت 1071هـ)، و"خلاصـة الأثر" و"نفحة الرّيحانة" للمحبيّ (ت 1111هـ) وغيرها كثير.

لقد ذكر هؤلاء المصـنّفون بيوت العلم في مصـنّفاتهم بطريقة مباشـرة، وبطريقة غير مباشـرة. وبعضـهم خصّ بيوت العلم بالذكر، وجعلها جزءًا من فهرس الموضـوعات[1]. وعلى أية حال فإنّ مراجعة تلك المصـــنّفات تُبرز بوضـــوح وجود ظاهرة بيوت العلم في الولايات الإسلاميّة المختلفة، وتأصُّل تلك الظاهرة عبر العصور. ويمكن تقديم أمثلة على وجود بيوت العلم في الولايات العربيّة والولايات الإسلاميّة في دولة الخلافة الإسلاميّة على النحو الآتي:

[1] انظر: طاشكبري زاده، الشقائق النعمانية، ص16، 23-24، 111، 229، 238 وغيرها؛ علي بن بالي، العقد المنظوم، ص364، 399، 439 وغيرها؛ البوريني، تراجم الأعيان، 7/1؛ شهاب الدّين الخفاجي، ريحانة الألبا، 138/1، 257، 215/1، 269، 274؛ 153/2، 249/2 وغيرها؛ المحبيّ، نفحة الريحانة، 2/9-93، 225-243، 138-8/3.

أولا- بيوت العلم في الولايات العربيّة

ذكر مؤلّفو كتب التراجم والتاريخ كثيرًا من بيوت العلم، الّتي ظهرت في الولايات العربيّة من الدولة الإسلاميّة مباشرة، أو غير مباشرة، ومن تلك البيوت:

1- بيت الطّيبيّ[1]

ذكره البوريني في بداية تراجم الأعيان وقال: "الأحمدون الطيّبون الثلاثة"[2]. ثمّ ترجم لهم، وهم من قرية الفندقوميّة في محافظة جنين بفلسطين، وكلٌّ منهم كان عالما باللّغة والأدب والعلوم الشّرعيّة.

2- بيت الغزّيّ

وهم بيت كبير، أصلُهم من غزة هاشم، وهاجر قسم منهم إلى دمشق الشّام ومصر منذ الحروب الصّليبيّة. وظهر من هذا البيت عشرات العلماء، ذكرهم معظم مؤلفي هذه الحقبة ومنهم في دمشق: محمد بن محمد بن محمد، بدر الدّين، وابنه محمد بن محمد، أبو الطّيب[3]. ومنهم في مصر: محيي الدّين، وابنه أحمد، قال الشّهاب الخفاجيّ في ذكرهما: "ومن البيوت بمصر بيوت الغزّيّة"[4]. وذلك فضلًا عن علماء كثيرين منهم: نجم الدّين الغزّيّ، مؤلف كتابي "الكواكب السائرة"، و"لطف السّمر".

3- بيت النابلسيّ

وهم بيت كبير، أصلهم من نابلس والقرى والبلدات المحيطة بها. بعضهم اشتُهر بهذه النسبة، وبعضهم اشتُهر باسم عائلته، أو نسبته إلى قريته، وهم لا يزالون في دمشق إلى يومنا. ومنهم: إسماعيل النّابلسيّ، وأحمد العناياتيّ النّابلسيّ، وعبد الغني النابلسيّ،

[1] انظر: البوريني، تراجم الأعيان، 1/7-24.

[2] انظر: البوريني، تراجم الأعيان، 1/7.

[3] انظر: شهاب الدّين الخفاجي، ريحانة الألبا، 1/138، 257؛

[4] انظر: شهاب الدّين الخفاجي، ريحانة الألبا، 2/153.

وغيرهم كثير. وقد جعلهم المحبيّ في شعراء دمشق، ومن مشاهير بيوتها، وفخر بصلة قرابته منهم من جهة أمه[1].

4- بيوت العلم في القدس الشّريف

ظهرت عدّة بيوت علم في القدس الشريف، وقدَ تحدَّثَ عنها أغلب مصنّفي النصف الأول من العهد العثمانيّ، وترجموا لعلمائها، وأوردوا لهم أدبًا فائقًا في الشِّعر والنَّثر. وقد جعل المحبيّ لشعراء القدس فصلا في نفحته، وذكر عددًا من بيوت العلم في القدس ومنها: بيت العلميّ وبيت أبي اللّطف، وقال في تقديمه للفصل: "الّتي كانت قبلة القبل، وروضة الشرف، الّتي أنبتت غصون الكرامة مثمرةً بالقُبل، وناهيكَ بتُربةٍ عُجنت بماء الوحي، وتوفَّر لِقَصْدها الوَفْد والوحى، وأهلها أَصحاب الذّوات القدسيّة، والبلاغة القُسّية"[2].

5- بيوت العلم في دمشق الشام

كانت دمشق الشام مركزًا مهمّا من مراكز الثقافة العربيّة الإسلاميّة منذ فتحها المسلمون سنة (15ه) ولا تزال حتّى يومنا هذا. وفي النصف الأول من العهد العثمانيّ ازدهرت الحياة الفكرية في دمشق، وبرع فيها كثير من العلماء في مختلف فروع العلم، سواء أكان هؤلاء من أهلها أم الوافدين إليها من الولايات العربيّة والإسلاميّة، وبخاصة أن أهلها معروفون بإكرام الغرباء الوافدين إليها. وحسن معاملتهم لهم، ولا سيما المغاربة منهم. ومَنْ يُراجع سلسلة أنساب العائلات الشاميّة الموجودة اليوم فيها، ويستقصي كتب التاريخ والنّسب سيجد أنّ حركة الوفود إلى دمشق الشّام لم تتوقف منذ الفتح الإسلاميّ وحتّى يومنا هذا (1443ه).

---

[1] انظر: البوريني، تراجم الأعيان، 91/2؛ نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، 130/3؛ المحبي، نفحة الريحانة، 132/2.

[2] المحبي، نفحة الريحانة، 225/2. والوخدُ: الإسراع في المشي. والوخى: القصدُ والصّوب والطريق المعتمد، اللسان: مادة وخد، وخى.

ظهرت في دمشق بيوت علم كثيرة، وفي كلّ فروع المعرفة، وقد جعل المحبيّ الباب الأول من نفحته في محاسن شعرائها ونواحيها، وقال في تقديمه لهذا الباب:"وهي كما علمتَ من عهد أن دخلتها العربُ موطنُ كلِّ أدب لك فيه الأرب، وقد أنجبتْ في كلِّ وقت وأوان بقادة كلُّ كلمة منهم بديوان"[1].

وبعد أن ذكر عددًا من علماء دمشق، جعل فصلا لمشاهير بيوتها، وذكر من تلك البيوت: بيت حمزة، وبيت العماد، وبيت النابلسيّ، وبيت الفرفور، وبيت القاري، وبيت المحبيّ[2].

6- بيت العُرْضي

بيت من بيوت العلم في مدينة حلب الشهباء، الّتي كانت ولا تزال، صنو دمشق الشّام، وقد ظهر من هذا البيت عدد من العلماء منهم: عمر بن عبد الوهاب العرضيّ، وولداه محمد وأبو الوفا[3].

ثانيا- بيوت العلم في الولايات الإسلاميّة

ظهر كثير من بيوت العلم في الولايات الإسلاميّة التابعة لدولة الخلافة الإسلاميّة العثمانيّة في النصف الأول من العهد العثمانيّ، وقد أفرد شهاب الدّين الخفاجيّ القسم الرابع من ريحانته في ذكر بلاد الروم، ومَنْ لقيهم فيها من الرؤساء والعلماء وغيرهم. ووصف هؤلاء العلماء بعامة فقال: "فرأيت فيها من العلماء والأشراف، ما تنقطع دون بيانه النُّعوتُ والأوصاف، فنافستهم في مدارس العلوم، واستفدت منهم ما تسهرُ لمُسامرتهِ عيون النجوم، لا سيّما: العلوم الطبيعية، والرياضية، ومقاطع الأنظار المنطقية والكلامية، فظفرت، ولله

[1] المحبي، نفحة الريحانة، 21/1.

[2] انظر: المحبي، نفحة الريحانة، 2/9-93.

[3] انظر: شهاب الدّين الخفاجي، خبايا الزوايا، ق60/أ، ق67/أ، ق66/ب؛ ريحانة الألبا، 279/1، 274، 269 على الترتيب؛ المحبي، خلاصة الأثر، 215/3، 89/4، 148/1 على الترتيب.

الحمد، بما حَمدْتُ به عقبى السُّرى، وربحتُ فيما أنفقته من رأس مال العمر أنفسَ مُشترى، وقلتُ: نور على نور، وتجارة لن تبور"[1].

لكنّ هذا المدح لم يدُم طويلًا، فبعد وفاة شيخ الإسلام أسعد بن محمد التبريزيّ سنة (1034هـ) انتقد الخفاجيّ تراجع العلم ومكانة العلماء في الدولة العثمانيّة[2]، ولعلّ ذلك النقد ناتج عن مبالغته في بيان مكانة شيخ الإسلام، إذ استمرّت الحركة الفكريّة في الدولة العثمانيّة طوال القرن الحادي عشر الهجريّ وما بعده.

وعلى الرّغم من النقد الّذي وجّهه الخفاجي للعلم والعلماء بعد وفاة شيخ الاسلام أسعد بن محمد التبريزيّ، إلّا أنه ذكر عددًا من بيوت العلم التّركيّة ومنهم:

1- بيت الحنائي

ذكر من هذا البيت علي بن الحنّائي بن أمر الله الحميديّ، وهو عماد البيت. وقال في تقديمه له: "وهم بيت علم وأدب فيه شرفُ نسبٍ عليٍّ وحسب"[3]. وكان شاعرًا ينظم الشِّعر باللّغات الثلاثة: التركيّة والعربيّة والفارسيّة، كما كان كاتبًا مبدعًا. قال في شعره: "وأشعاره بالألسنة الثلاثة في وجوه الطُّروس تفضح اللَّمي والحوَر، وتَجْذبُ بأيادي لُطفها عنانَ الفؤاد والبصَر"[4].

2- عائلة الفناري

ورد ذكر عدد من أفراد هذه العائلة في كتاب "الشّقائق النّعمانيّة"، وهي تنسب إلى إحدى القرى في قضاء بروسة بتركيا، أو إلى صنعة (مهنة) الفنار (المشاعل) الّتي كانوا يعملون بها. وقد برز منهم: محمد بن حمزة، شمس الدّين الفناريّ، وابنه محمد شاه،

[1] شهاب الدّين الخفاجي، ريحانة الألبا، 248/2.

[2] انظر: شهاب الدّين الخفاجي، ريحانة الألبا، 283/2.

[3] شهاب الدّين الخفاجي، ريحانة الألبا، 249/2.

[4] شهاب الدّين الخفاجي، ريحانة الألبا، 249/2.

وحفيده يوسف بالي بن محمد شاه، ثمّ ابن حفيده علي بن يوسف بالي، ثمّ ابن الأخير محمد بن علي بن يوسف بالي، وغيرهم[1].

3- بيت أبي السّعود

من بيوت العلم المعروفة في إستانبول، وأول هذا البيت هو المولى أبو السّعود محمد، الّذي تولّى إفتاء الدولة الإسلاميّة العثمانيّة، وصاحب التفسير المشهور "إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم". وله شعر بالألسنة الثلاثة: التركيّة والعربيّة والفارسيّة. وكان يفتي لسائليه باللّغة الّتي يتحدّثونها قال علي بن بالي: "كان يكتب الجواب، على منوال ما يكتبه السّائل من الخطاب، واقعًا على لسان: العرب، والعجم، والرّوم، من المنثور والمنظوم"[2]. كما ظهر ابنه محمد، وبرع في اللّغات والعلوم الشّرعية والخط. "وكان يكتب خطًّا مليحًا في الغاية، وكان له اطّلاع عظيم على قواعد اللّسان الفارسيّ حتّى بلغ إلى أنّه نظم الشِّعر الفارسيّ على أبلغ النظام حيث يَعجز عنه مهرة الأعجام"[3].

وظهر حفيده عبد الكريم بن محمد، فنشأ في رعاية أبيه، ولمّا توفي تكفّل به جدّه المولى أبو السعود، وكان مشهورًا بحسن الخطّ والكتابة[4].

كما نشأ من العائلة المولى جعفر ابن عمّ المفتي أبي السّعود، وعمل بالقضاء والتّدريس، وكان عالمًا باللّغات والعلوم الشرعيّة[5].

---

[1] انظر: طاشكبري زاده، الشقائق النعمانية، 16، 23-24، 111، 229، 238، 277، 290.

[2] علي بن بالي، العقد المنظوم، 441.

[3] علي بن بالي، العقد المنظوم، 365.

[4] انظر: علي بن بالي، العقد المنظوم، 439.

[5] انظر: علي بن بالي، العقد المنظوم، 399.

الخاتمة

بعد الانتهاء من كتابة هذا البحث، توصلت إلى عدد من النتائج والتوصيات، وهي:

أولا- النتائج

- أن دولة الخلافة الإسلاميّة العثمانيّة في النّصف الأول من عهدها، لم تفرض اللّغة التركيّة على شعوبها المسلمة وغير المسلمة، بل تركت المجال لأبناء مختلف الأعراق تعلّم لغاتهم والتأليف لها، فكان أن سادت ثلاث لغات هي: العربيّة والتركيّة والفارسيّة في ذلك العهد الّذي امتدَّ قرنين من الزّمن.
- أن العلماء في دولة الخلافة الإسلاميّة العثمانيّة كانوا ينتقلون في أرجاء الدولة بسهولة ويُسر، ما أسهم في تبادل المعارف وتلاقح الأفكار، وشيوع أدب جديد هو أدب الرّحلة، فصنّف فيه أغلب العلماء، وجاء تصنيفهم على ثلاث أوجه: بالنَّثر أو الشِّعر، أو الجمع بين الشِّعر والنَّثر.
- برزت ظاهرة مشتركة في علماء دولة الخلافة الإسلاميّة العثمانيّة تمثلت في ظهور بيوت العلم في كثير من العائلات الّتي توارثت العلم عبر أجيال عديدة.
- القواسم المشتركة بين الأدبين العربيّ والتركيّ أكثر بكثير من نقاط الاختلاف.

ثانيا- التوصيات

- ضرورة دراسة القواسم المشتركة بين الأدبين العربيّ والتركيّ لما في ذلك من مساهمة في بناء وشائج صلات متينة بين أبناء الشعبين وبخاصة في هذه الحقبة الصعبة من تاريخ الأمة الإسلاميّة فالأدب، شعره ونثره ومؤلفاته، له دور مهم في تقريب الشعوب بعضها مع بعض.
- ضرورة تحقيق كثير من المخطوطات العربيّة والتركيّة ونشرها نشرًا علميا لأن ذلك يسهم في تحقُّق التوصية الأولى.
- إعادة كتابة التاريخ الإسلامي في هذه الحقبة بعيدًا عن آراء من المستشرقين وتلاميذهم ما سيسهم في إبراز حقيقة الخلافة الإسلاميّة العثمانيّة.

المصادر والمراجع

أولا- المصادر

أ. المصادر المخطوطة

ابن أيوب الأنصاريّ، موسى بن أيوب (ت 1003ه). **الروض العاطر فيما تيسّر من أخبار أهل القرن السابع إلى ختام القرن العاشر**، محمد، القرن الحادي عشر الهجريّ، مكتبة برلين رقم (9886)، مصوّر بحوزتي، (310) ورقات.

شهاب الدّين الخفاجي، أحمد بن محمد (ت 1069ه). **خبايا الزوايا فيما في الرّجال من البقايا**، رجب 1083ه، دمشق: المكتبة الظاهرية رقم (7109)، مصوّر بحوزتي، (228) ورقة.

ب. المصادر المطبوعة

البوريني، حسن بن محمد (ت 1024ه). **تراجم الأعيان من أبناء الزمان**، تحقيق صلاح الدّين المنجد. دمشق: مطبوعات المجمع العلمي العربيّ، 1959، 1961.

أبو البقاء العكبريّ، عبد الله بن الحسين (ت 616ه). **التبيان في شرح الدّيوان**، ضبط وتصحيح وفهرسة مصطفى السقا وزميليه. بيروت: دار المعرفة، د.ت.

الخنساء، تماضر بنت عمرو (ت24ه). **الدّيوان**، دراسة وتحقيق إبراهيم عوضين، القاهرة: مطبعة السعادة، 1985.

الشرواني اليمني، أحمد بن محمد (ت 1253ه). **حديقة الأفراح لإزالة الأتراح**. مصر: المطبعة الوجهية، 1302ه.

شهاب الدّين الخفاجي، أحمد بن محمد (ت 1069ه). **ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدّنيا**. تحقيق عبد الفتاح الحلو. ط1. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1967/1386.

العناياتي النابلسي، أحمد بن أحمد (ت 1014ه). **ديوان العناياتي النابلسي: دراسة وتحقيق مشهور الحبازي**. ط1. رام الله، عمّان: دار الأمين للنشر والتوزيع، دار جسور ثقافية للنشر والتوزيع، 2010/1431.

العيدروسي، عبد القادر بن شيخ (ت 1038ه). **النور السافر عن أخبار القرن العاشر**. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 1985.

ابن محاسن، يحيى بن أبي الصفا (ت 1053ه). **المنازل المحاسنية في الرّحلة الطرابسية**. دراسة وتحقيق محمد عدنان البخيت وزميله. ط1. بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1981/1401.

المحبي، محمد أمين بن فضل الله (ت 1211ه). **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**. القاهرة: المطبعة الوهبية، 1284ه.

----------. **نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة**. تحقيق عبد الفتاح الحلو. ط1. القاهرة: دار إحياء الكتب العربيّة، 1967/1387.

المرادي، محمد خليل (ت 1206ه). **سلك الدّرر في أعيان القرن الثاني عشر**. تحقيق أكرم العلبي. ط1. بيروت: دار صادر، 2001/1422.

ابن منظور، محمد بن مكرم (ت711ه). **لسان العرب**. بيروت: دار صادر، د.ت.

نجم الدّين الغزّي، محمد بن محمد (ت 1061ه). **الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة**. تحقيق جبرائيل جبّور. ط2. بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1979.

---------. **لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر**. تحقيق محمود الشيخ. دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1981-1982، (إحياء التراث: 57).

ثانيا- المراجع

الحبازي، مشـــهور. **الحســـن البوريني: أديبًا ومؤرّخًا مع تحقيق ديوانه**. بيروت: جامعة القديس يوســـف، كلية الآداب والعلوم الإنســـانية، معهد الآداب الشـــرقية، 1999، (أطروحة دكتوراه غير منشورة).

الخطيب، مصـــطفى عبد الكريم. **معجم المصـــطلحات والألقاب التاريخيّة**. ط1. بيروت: مؤسّسة الرّسالة، 1416 هـ/1996م.

زيدان، جرجي. **تاريخ آداب اللّغة العربيّة**. مراجعة وتعليق شـــوقي ضـــيف. طبعة جديدة. القاهرة: دار الهلال، د.ت.

صابان، سهيل. **المعجم الموسوعيّ للمصطلحات العثمانيّة التاريخيّة**. مراجعة عبد الرازق بركات. الرّياض: مكتبة الملك فهد الوطنيّة، 1421 هـ/2000م. (السلسلة الثالثة: 43).

مصطفى، إبراهيم، وزملائه. **المعجم الوسيط**. إستانبول: دار الدّعوة، 1989م. (مجمع اللّغة العربيّة، الإدارة العامّة للمعجمات وإحياء التّراث).

المنجد في اللّغة والأعلام. ط35. بيروت: دار المشرق، 1996م.

الهاشميّ، أحمد. **ميزان الذّهب في صناعة أشعار العرب**. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1399 هـ/1979م.